القيم الإنسانية في خمريات أبي نؤاس

Hunan Values in Khamraat Abi Nawas

م.د. جاسم الياس أحمد
Lect. Dr. Jasim Alyas Ahmed
المديرية العامة في تربية نينوى
Education in Nineveh
E-mail: Hbasim600@gmail.com

الكلمات المفتاحية: القيم الإنسانية، خمريات، أبو نؤاس، المتلقي، الشاعر المجتمع.

Keywords: The human value, khamriat, Abu nawas, recipient, poem, society.

الملخص

يعد الشاعر أبو نواس من أشهر شعراء العصر العباسي ، فهو صاحب الثورة في كسر حاجز بناء القصـــيدة العربية، فهو أول من ســـخر من الوقوف على الأطلال، وقد طرق أغلب الأغراض الشــعرية، وقد انفرد بغرض عرف به وأضــيف إليه، ألا وهو غرض الخمريات، بالرغم من أن كثير من الشعراء الجاهليين والشعراء الأمويين والعباسيين طرقوه، إلا إن أبا نواس هو من أطلق عليه لقب ملك هذا الفن، والناظر في عنوان هذا البحث (القيم الإنســـانية في خمريات أبي نواس) يجد مفارقة كبيرة في العنوان، فصـــدره يدل على المثل العليا والأخلاق الســـامية وحســـن التعامل وغيره من المعاني الإيجابية والنبيلة، وفي عجزه يجد ما يدل على الملذات والمجون وفقدان العقل وما يتعلق به من أمور ســـلبية، لكن وبعد قراءة الديوان والبحث في ثنايا القصـــائد والمقطوعات وجدنا أن الشاعر تسوقه فطرته الإنسانية إلى التمسك والدعوة إلى وجوب الاحتفاظ بالقيم السامية والمثل العليا التي ترفع شأن من يتحلى بها، وقد دعا إليها الشاعر لبناء منظومة اجتماعية سامية.

Abstract

Abu nawas is considered the most famous poet in the Al- Abbasi era, he was the author of breaking rules of building Arabic poems. He was the first who wrote (khamriat) poems. Although there are many pre-Islamic, Alabbasi and Amoy poets wrote about it, but Abu- Nawas was the king of this art. Anybody who sees this research (The human value in Khamriat) will find considerable paradox because his a prosy starts about good values like good treatment and positive things, but it ends describing wine, lack of modesty and loss of mind. But after reading his writings, and if we go deeper with them, we find out that the poet was led by his human nature to maintain his Supreme values that elevate him, these are all the values that the poet tackles to build Supreme social system.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد ابن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد

يتناول هذا البحث دراسة خمريات أبي نؤاس، والبحث عن القيم الإنسانية المبثوثة في قصائده، فالعصر العباسي شهد بروز مجموعة من الشعراء الذين تباينت أفكارهم ورؤاهم بحسب مذاهبهم. وقد حظي أبو نؤاس بمكانة عالية في ميدان الخمر، وعبر من خلال خمرياته عن مجموعة من القيم والأحاسيس التي حملتها قصائده، مضمرة في طياتها روح الشاعر العباسي وتأثره بواقعه الإسلامي.

جاء البحث متضمنا تقديما عن مدلول القيمة في اللغة والاصطلاح، وخصائص القيم، وتعريف الخمريات، ثم ترجمة موجزة عن حياة الشاعر ونفسيته، بعدها تناولنا مجموعة من القيم الإنسانية في ديوان أبي نؤاس (الخمريات) ، حسب أهمية كل قيمة .

مدلول القيمة في اللغة والاصطلاح

إن الجذر اللغوي للفظة القيمة يعود في أصـــله إلى الفعل (قَوِمَ)، وهذه المادة تدور حول عدة معان، حددتها المعاجم اللغوية، إذ تناولتها بجميع اشـــتقاقاتها الفعلية والاســـمية، وفســـرتها بحسب سياقاتها التي وردت فيها مما جعلها ذات دلالات مختلفة، يحددها تركيبها الجملي.

فالقيمة واحدة القيم وهي ثمن الشيء بالتقويم، والقيمة مشتقة من القوام أي" العدل" وحسن الطول وحســـن القامة، وهي تعني في اللغة القدر، وقوّم الســـلعة أي قدّرها، ولفظة القيمة تحمل معنى الاســـتقامة قال تعالى: " فيها كتب قيمة"[1] أي مســـتقيمة تبين الحق من الباطل بالأدلة والبراهين، وقوام كل شـــيء، ما اســـتقام به، وقوام العيش: عماده، وقوام الجســـم: تمامه. والتقويم: عملية التفضيل والترجيح، والشيء الراجح في اللغة العربية، هو الوازن والتفاضل بين القوم أي أن يكون بعضهم أفضل من بعض[2] .

إن مداليل لفظة القيمة التي عرضـــناها تحمل في ثناياها المعاني الإيجابية، ســـواء كان المقصـــود بالكلام ماديا أم معنويا أم إنســـانيا. والقيمة عند النقاد والباحثين تتجاوز معناها العباري إلى بعدها الدلالي من أجل الوصول إلى معناها الاصطلاحي.

إن لفظة القيمة ذات أبعاد مطلقة ومتعددة لا يمكن تحديد مفهوم لها إلا أن تكون تركيبا إضـــافيا، ذلك أن مفردة القيمة قد دخلت في أغلب الحقول المعرفية، فهي وظفت في الاقتصـــاد والفلسفة والسياسة الأدب وغيرها من المجالات. لذلك أصبح لها مفاهيم متنوعة بحسب أدبيات كل حقل معرفي.

وعليه فالقيمة" نشـاط ذهني يتصـور أمرا ذا شـأن ويسـميه قيمة، وهذا التصـور الفكري متصـل أشـد الاتصـال بالفعل، وما الفعل الواعي إلا اسـتبصـار واختيار، ونحن ما أن نتخذ قرارا بتفضيل أمر على أمر آخر، حتى يتم صنع الفكر، أي صنع اختيار القيمة وتحديدها"[3]، فالعقل هو الذي يميز بين الأشـــياء من خلال مخزونه التراكمي المعرفي، ويمكن القول أن القيمة:" هي أساس ما يسمى بالحكم التقويمي أي ذلك الحكم الذي يمنح المدح أو الذم لصفات يراها المصدر للحكم في المفاضـلة بين شـيئين أو أكثر"[4]. وقد يكون هذا الحكم مرتبطا بالتقدير والتفضـيل وهي بهذا تعبر عن" كل ما يتميز به الشـي من صـفات تجعله مسـتحقا للتقدير كثيرا أو قليلا، فإن كان مســـتحقا للتقدير بذاته كالحق والخير والجمال كانت قيمته مطلقة، وإن كان مســـتحقا للتقدير من أجل غرض معين، كالوثائق التأريخية والوســـائل التعليمية كانت قيمته إضـــافية[5] وهي قد تعني الســـجايا الكامنة في النفس، وفي ضـــوء هذا الحكم يمكن أن تعد بأنها ميل عام لتفضـــيل حالات وشؤون معينة على أخرى، ما يعني أن جانب التفضيل في هذا المفهوم أن القيم تتعلق بالمشاعر والعواطف التي نقيم على أسـاسـها ما نعدّه جيدا أو سـيئا، وتتميز المشـاعر المتأصـلة في القيم

بطبيعتها الدافعة، طالما أنها تكون بمثابة إشـــارات تميز الجوانب الجذابة في بيئة الفرد والجوانب غير الجذابة التي يجب أن يتجنبها الفرد أو يغيرها[6]. فهي مجموعة من الأحكام أو المعايير النابعة من تصـورات أسـاس عن الكون والحياة والإنسـان، وتتكون لدى الفرد والمجتمع من خلال التفاعل مع المواقف وتبادل الخبرات الحياتية المختلفة، إذ تمكنه من تعيين أهداف وتوجهات لحياته تتماشـى مع قدراته، وتتجسـد بوسـاطة الاهتمامات والسـلوكيات العملية بطريقة مباشـرة أو غير مباشرة[7]. وبهذا يكون للقيم دور أساس في بناء المجتمع وتصحيح مسارات الأفراد.

والقيم تشـمل أوجه النشـاط المختلفة فتشـكل جملة من الأحكام "التي يصـدرها الفرد على بيئته الإنسانية والمادية بالتفضيل أو عدم التفضيل بالخير أو بالشر، بالخطأ أو بالصواب، بالقبح أو بالجمال، بالنفع أو بالضرر على الموضوعات أو الأشياء أو السلوك أو الفكر أو الانفعال"[8] فهذا التضـــاد بين الثنائيات يمثل نتائج الأحكام على القيم والتي يمكن بوســـاطته للقيم" أن تحدد إجرائيا في صور استجابات القبول والرفض إزاء موضوعات أو أشياء أو أفكار"[9].

والقيمة شـــيء معنوي غير منظور أو مرئي، فهي ليســـت من قبيل المادة لتقاس قياســـا مباشرا وهي هدف سام يُسعَى إليه، وتقسم القيم على قسمين القيم الوصفية والمعيارية، فالوصفية: تتمثل في مواقف الفرد مع أو ضـد أي شـيء، أما المعيارية: فتشـير إلى الأحكام التي يبنيها على تلك القيم (الوصفية)[10].

وهي بحسـب ما ذكر آنفا" اهتمام أو اختيار أو حكم يصـدره الإنسـان على شـيء مهتديا بمجموعة المبادئ والمعايير التي وضـــعها المجتمع الذي يعيش فيه، والذي يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السـلوك"[11]، فالقيمة بهذا المفهوم تعد حكما على الأشـياء، وأن المجتمع هو الذي يحدد ما يجب فعله وما لا يجب، وهي معايير للســلوك الإنســاني والمجتمع المتوازن الذي ينتشـر فيه الوعي بالقيم ومن ثم الالتزام بها، ويرتبط بازدياد الوعي بالقيم والإحسـاس بها مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط [12]. وقد عرّفت بأنها مجموعة من المعايير والأحكام النابعة من من تصـــورات أســـاس من الكون والحياة، تتكون لدى الفرد والمجتمع عبر التفاعل مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، إذ تمكنه من تحديد أهداف وتوجيهات لحياته تتلاءم مع قدراته وإمكاناته، وتتجســـد بوســـاطة الاتجاهات والاهتمامات أو الســـلوكيات بطريقة مباشـــرة وغير مباشرة[13]. فهي إذن علم " يفسر لنا معاني الخير والشر ويوضح لنا الصورة المثلى التي ينبغي أن يتبعها الناس في معاملاتهم مع الآخرين، ويبين ما ينبغي أن يقصـــده الناس في أعمالهم من غايات"[14] فالالتزام بالقيم هو الذي يحدد السـلوك فكلما تمسـك السـلوك بالقيم المثلى كان خيرا، وإن خالفها كان شـرا، ومن رؤية أوسـع أن القيم الإنسـانية تهتم بكل تفكير أو سـلوك أو قاعدة تخص الفعل الإنساني وهي بهذه الرؤية " فإنها تبحث في الأفكار وقواعد السلوك الأخلاقي كما

صيغت صراحة أو ضمنا في المجتمعات البشرية، منذ أن كان للبشرية وجود"[15] فهي نابعة من واقع المجتمعات، وهي ترتبط بالحياة العملية وتتطلب منفعة وتسعى باستمرار إلى تحاشي الشر، وهذا يعني أن القيمة تقوم على التجربة المباشـــرة وأنها إيجابية، لأنها تقوم على الإدراك الواعي للفائدة المترتبة عن التجربة[16]، فالقيم الإنسانية تهتم بالفضائل وتحاشي الرذائل.

وبما أن القيم ناتجة عن الواقع فإنها تعتمد الأحكام الموضـوعية في تقويم الشـي المراد، وذلك مراعاة لما" يتميز به الشـيء من صـفات تجعله مسـتحقا للتقدير كثيرا أو قليلا"[17]، وتتميز هذه الصفات بالثبات وهي التي تجعل الشيء مرغوبا فيه وتعد هذه الصفات عناصر قيمية، أي أن قيمة الشـيء تتحدد بها وعلى هذا فالقيم من الناحية الموضـوعية هي" صـفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال في (المعرفة)، والأفعال في (الأخلاق) والأشـــياء في الفنون وما دامت كامنة في طبيعتها فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابســـات"[18]، نتوصـــل عبر هذا المفهوم أن الصـــفات المذكورة هي المؤهل للقيمة وبوســـاطتها نصـــل إلى حكم مقبول، فالقيم ذات طبيعة موضوعية؛ لأنها تتحقق بالإجماع.

خصائص القيم

تمتاز القيم بعدة خصائص منها:

الدينية:

تسـتمد القيم من القرآن الكريم والسـنة النبوية، وهي تربط الإنسـان وتصـرفاته بأسـس المبادئ الإسـلامية" فالمبادئ والقيم التي تحكم التربية الإسـلامية من صـنع خالق الإنسـان أوحى بها إلى نبيه المصـطفى (صـلى الله عليه وسـلم) فهذا ما تمتاز به فهي ربانية المصـدر والمنهج والهدف"[19]، ولكن هذا لا يعني أن القيم الإنسـانية لم تكن موجودة قبل الإسـلام، أو اسـتأثر بها الإسلام لنفسه، فهي موجودة قبل الإسلام وسند هذا الكلام قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ، فالقيم تمتلك طاقة وقوة تمكنها من السير مع الزمن. فالإسـلام جعل غاية الإنسـان أن يحسـن علاقته بالله- سـبحانه وتعالى- ونيل رضـاه، وذلك باتباع القرآن والسنة النبوية، والتمسك بالقيم السامية التي تدعو الناس إلى الخير وتجنب الشر.

الشمول:

من ميزات القيم الشـــمولية" إذ تراعي عالم الإنســـان ومافيه والمجتمع الذي يعيش فيه، وتحدد أهداف حياة الإنسان وغايتها، فهي شملت نشاط الإنسان وحياته وهذا الشمول جعل منها منهجا كاملا يشـمل جميع مظاهر النشـاط الحيوي للفرد وجميع علاقات الإنسـان وكافة جوانب حياته وجميع ارتباطه بالحياة والأحياء[20]، فكل شـــيء له قيم فالفكر والاعتقاد والنفس والســـلوك

لها قيم، فالفرد يدين بقيم المجتمع الذي ينتمي إليه فهو يســتمد قيمه من عاداته وتقاليده وأعرافه، فإذا خرج عن قيم مجتمعه عُدّ شاذا وأصبح منبوذا.

الثبات والمرونة:

إن القيم من شــأنها أن تحافظ على المجتمع، ويجب أن تكون ثابتة ومســتقرة، فبثباتها ســتقف في وجه أي تغير في الحياة الاجتماعية، " فالقيم العليا ثابتة لا تقبل الاجتهاد أو التغيير أو التبديل، كالقيم العقدية وقيم العبادات وقيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك قيم مجال الاختيار فيها واســع لمواجهة ما يتولد من مواقف وحوادث وما تصــير إليه من الأمور في المجتمعات"[21]، والإســـلام تميز بالتوازن بين المرونة والثبات، فهو يجمع بينهما في تناســـق، واضعا كلا في موضعه، الثبات فيما ينبغي أن يبقى، والمرونة فيما يجب أن يغير ويتطور فالقيم الجوهرية يجب أن تبقى وتخلد والقيم غير الجوهري كالشــؤون الدنيوية والعلمية فإنها تتغير بحس التطور الحضاري والعلمي والاجتماعي.

الإنسانية:

تظهر إنسانية القيم بوساطة ارتباطها بمعان يمكن أن نستشفها من مفهوم لفظة (إنسان) التي تدل على الرحمة والإشـــفاق والتراحم والتعاون والآخاء وغيرها من القيم التي تهتم بالفرد والمجتمع فالإنسان الذي لا يتصف بهذه الصفات ينعت بأنه عديم الإنسانية، والمجتمع الذي لا تسوده هذه القيم فهو مجتمع مفكك ينهار في أي وقت.

تعريف الخمريات

الخمريات جمع خمرية وهي كلمة خمر بزيادة ياء النســب وتاء النســوة، أي أنها كل ما نسب إلى الخمرة، " وقصــيدة خمرية،... نظمت في وصــف الخمر"[22] ، وســمي هذا الشــعر بالخمريات لأنه يتضمن كل ما يتعلق بمشرب وملاذ الخمر وشاربه، فالخمريات مصطلح أطلق على الأشعار التي تتناول عالم الشراب، بدءا بالخمرة وأوصافها، مرورا بأوانيها وأشكالها، ورجوعا إلى الى مواطنها وكرومها، ووصفا لمجالسها وما تضمه من سقاة وندمان وغناء ولهو وطرب، وتتبعا لتأثيرها في النفس، وما يحصل من نشوة، وما يجري في مجالسها من طرائف، وطقوس مما جعل القصائد الخمرية أو الأبيات التي تضمها قصائد الشعر العربي في هذا الموضوع تحتل مكانة بارزة[23] ، فالخمريات بهذا الوصف تعد فنا شعريا قائما بذاته له عناصره الخاصة.

والخمريات كانت معروفة وموجودة عند أغلب الشعراء الذين سبقوا أبا نواس وفي مقدمتهم الشعراء الجاهليون، إذ أغرموا بوصفها لكلفهم بها ولما تضفي على قلوبهم من سرور وما تفيء على نفوسهم من متعة يغرقون فيها همومهم فتنقلهم إلى عالم من الأخيلة السعيدة، فبدأت مواكبها من الشعراء الجاهليين مرورا بالشعراء الأمويين وصولا إلى الشعراء العباسيين، والخمرة في هذه

الرحلة ظلت تؤدي في خيال الشـــعراء دورا كبيرا وتتولد فيها المعاني والتشـــبيهات حتى جاء أبو نواس فأصـبح ملك شـعراء الخمرة في عصـره [24]، فأبو نواس لقب بملك الخمرة بالرغم من أنه لم يكن أول من قال فيها، فقد عاش للخمرة يتغنى بها جاعلا منها صورة متكاملة .

فليس هناك شـــاعر شـــغل بوصـــف الخمر مثل أبي نواس، فهو لم يترك جانبا من هذا الموضـوع دون أن يشـارك فيه، حتى ليبدوا ديوانه كأنه قصـة الخمر من بدايتها حتى نهايتها، فقد أفرد لها القصـائد والمقطوعات التي جعلت منها فنا مسـتقلا له وحدته الموضـوعية، مسـتعينا في ذلك بملكته العقلية الخصـبة، التي أمدته بكثير من المعاني، ومسـتعينا بما يمتلك من قوة الخيال والقدرة على التصـــوير [25]، كل هذه الأمور عكســـت حقيقة الإبداع لدى أبي نواس وخفة الروح الموجودة عند الشاعر، هذه المعطيات جعلت منه أستاذا لفن الخمريات دون منازع، وأبو نواس لم تنحسر غايته في خمرياته على المتعة واللذة فحسب، بل عالج فيها صورا سلبية كانت سائدة في مجتمعه، إذ صور بوساطة الخمرة أجواء عصره، وما أودعته الحضارة في ذلك المجتمع من بذخ وقيان وغلمان، ولجأ من خلال الخمرة إلى كشـــف ســـوءات مجتمعه، وكشـــف الأقنعة عن تلك الوجوه التي كانت تتخذ من الدين والتمســـك بالأعراف شـــعارا تخفي تحته الكذب والرياء [26]، فهو كان يعالج حالة اجتماعية ســـائدة خرقت القيم والمبادئ الإنســـانية متخذة منها غطاء تمارس من خلاله أبشع المنكرات.

وكان لأبي نؤاس حس دقيق وذوق مرهف يعرف عن طريقهما كيف يختار أرق الألفاظ وأرشـــقها وأخفها في النطق وأحلاها في الســـمع، يروم في ذلك أن يمس شـــغاف القلوب، إذ كان يحسن اختيار أسـهل الألفاظ وأيسرها وأقربها إلى ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية، ومن أجل ذلك كان يتجافى عن ألفاظ القدماء، لأن مقصـــــده أخذ ألباب متلقيه والتأثير فيهم، إذ كلما كان الخطاب الشـــعري قريبا من ذهن المتلقي وله القدرة على تأويل كلام المرســـل كلما كان تأثيره أوقع في النفس، وعليه أن يعرض كلامه بلغة عذبة ذات موسيقى جميلة.

يبدأ أبو نؤاس بالتســـبيح للخمرة، ومن ثم بالتقديس لها، فقد انتزع عنه عباءة الجاهلية القديمة التي كان يلتحف بها الأعشـــى والأخطل، ونراه قد ارتدى ثوبا جديدا كثير المعاني والزخرف [27]، فالشـعراء قبل أبي نؤاس كانت مقصـورة على وصـف الخمر تحديدا، أما أبو نؤاس فقد كان أكثر إلماما بالخمريات ، إذ تناول كل ما يتعلق بالخمرة من أوصـاف وأنواع ومجالس وما يتعلق بها من ألوان الحديث والمسامرة ، والشخصيات وما يدور على ألسنتهم من حوار ومنادمة.

ترجمة أبي نؤاس

اسمه الحسن بن هانئ الحكمي ويكنى أبا علي، ولد بالأهواز عام (145هـــ) وكان أبوه مولى لآل الحكم بن الجراح من بني ســعد العشــيرة اليمنيين، قدم من دمشــق مع جند مروان بن

محمد وقيل إنه من أصل فارسي، أما أمه جلبان فكانت فارسية ، وقد اشتهر بأبي نواس، أطلقها عليه وهو صبي رجل من جيرانه بالبصرة لخصلة من الشعر كانت تنداح مهتزة على مقدمة رأسه، توفي والده وهو في السادسة من عمره، ثم انتقلت أمه إلى البصرة بعدما عضها الفقر ، فأسلمته إلى الكتاب، فحفظ القرآن الكريم وأطرافا من الشـعر ولم يلبث أن اختلف إلى دروس العلماء حين شـبّعن الطوق فتزود من الدراسـات اللغوية والدينية من الشـعر القديم، وألمت الفاقة بأمه فأسـلمته إلى عطار لكي يتعلم مهنته، ومكث عنده مدة[28]، وهناك تعرف على والبة بن الحباب وهو شاعر ماجن، ولما رأى والبة أبا نواس اسـتحلاه فقال له: إني أرى فيك مخايل أرى أن لا تضـيعها، وسـتقول الشـعر فاصـحبني أخرجك، فقال له أبو نواس: ومن أنت؟ فقال أنا أبو أسـامة والبة بن الحباب فقال أبو نواس: نعم، أنا والله في طلبك، فكان والبة أول شخصية يتعرف عليها في عالمه اليافع فتتلمذ على يديه ونحا منحاه، ولم يكن والبة الشـخصـية الوحيدة التي تأثر بها في مجونه، بل تعرف على شـخصـية مغمورة في عالم الشـعر لكنها على مسـتوى خطير في عالم التهتك والمجون وهو عمر الخاركي، يقول أبو نواس: ما مجنت ولا خلعت العذار حتى عاشـرت عمر الخـاركي، وقد أطلق العرب الجـاهليون لفظـة مجون على الأعمـال المخلـة بـالآداب والأعراف والتقاليد دون تستر أو حياء، وبهذا التعريف ندرك الأبعاد الخطيرة لظهور المجون في أي مجتمع من المجتمعات، وانعكاس هذا المجون على شـعر الشـعراء[29]، ولما مات والبة عاد إلى البصـرة ولزم خلف الأحمر وحمل عنه علما كثيرا وأدبا واسعا؛ وقد أبى إلا أن يقوم لسانه على لغة عربية خالصـة، فأقام في البادية سـنة ليأخذ عن أهلها الخلص[30]، وبعد مدة ارتحل إلى بغداد فاتصـل بالخليفة هارون الرشـيد، فمدحه مركزا على المعاني الدينية وفي وصـف إنجازاته، ثم انتقل بمدحه إلى البرامكة، الأمر الذي أغضب هارون الرشيد، ولما أوقع الرشيد بالبرامكة سنة 187هـ حزن أبو نواس وخاف على نفسه فرحل إلى مصر، وقد اتصل بواليها الخصيب بن عبد الحميد الذي كان على ديوان الخراج، وكان فارسـيا، وقد مدحه ونال صـلاته، عاد أبو نواس إلى بغداد بعد وفاة هارون الرشيد، فتولى الأمين الخلافة، فاستقبله واتخذه نديما له وشاعرا خاصـا، فلاكته الألسنة، ويقال أن المأمون حبسـه مدة ثلاثة أشـهر ثم أطلقه، على أن الأجل لم يطل به، فقد توفي قبل دخول المأمون بغداد وقد اختلفت الروايات في سـنة وفاته وفي سـببها فقد تراوحت سـنة وفاته ما بين 195هـ و199هـ[31]

سلكه في الحياة

كان أبو نواس أداة صالحة للهو الشعر؛ فقد كان وسيم الطلعة حسن القوام ،رقيق النفس، خفيف الروح كان يجمع إلى ذلك كله ذكاء فريدا وثقافة عالية، نتج عن هذه الثقافة شـخصـية أبدعت في اتجاهين: اتجاه قديم يبدو في مدائحه وطردياته ومراثيه، واتجاه جديد تبدو فيه غزلياته

وخمرياته وأهاجيه، وكان مع كثرة أدبه ميالا إلى الخلاعة، فاتخذ المتعة مسلكا له منذ صباه، لم يرذل أبو نواس الدين وإن لم يعمل بفرائضه، لكنه كان يهاجم من يرفض العفو الإلهي لمن تعمد الذنوب فكانوا لا يسلمون من لسانه، فنفسه كانت قلقة تجاه كل من يحيل بينه وبين التوبة والعفو، فقد هجا النظّام الذي كان ينهاه عن أفعاله، ويقول له إن الكبائر مخلدات في النار، ويكبر أبو نواس ويسهم في كل موضوعات الشعر لفترة تناهز الأربعين سنة، أشهرها الخمريات وهي الفن الذي عرف به وأظهر بوساطته تهتكه ومجونه[32]، تعد الخمريات أهم ما في شعر أبي نواس، إذ أكثر من أوصاف الخمرة ومجالسها وكؤوسها، أفرد فيها مقطوعات وقصائد عبر فيها عن شغفه وذكرياته.

إن الإنسان العربي وإن كان غارقا في ملذاته ومجونه الا أنه يملك من الخصائص ما يرسم لنا صورة مشرقة تعبر كثيرا من القيم الماثلة في داخله.

إن الإنسان يدرك بوعي كامل وجوده الحقيقي وما يضطرب فيه من أحداث وما يعتلج في أعماق أخيه الإنسان من آمال وآلام وتصورات، والشعر العربي – ولا سيما العباسي– يعد من الوثائق التأريخية في استجلاء كثير من خصائص الحياة العربية، فهو يمدنا بشيء كثير من الرؤية للمواقف الإنسانية الصادحة بالمثل والقيم الرفيعة التي تصل إلينا بتلك الحياة، والنصوص الشعرية التي بين أيدينا تمثل جوانب قيمة ونظرات تعبر عن مقتضيات الحياة وفق مفاهيم زمنية خاصة، وتعكس شيئا من سلبيات ذلك العصر، وهي في الوقت ذاته تقفنا على قيم إنسانية ونظرات سديدة، وفضائل اجتماعية تتجاوز الزمن وهي محتفظة بقوتها وحيوتها، هذه القيم جاءت في أشعار قيلت في مجالس اللهو والخمر، لكنها تعكس صوت الإنسان الذي يمثل قيمه التي ما زال يؤمن بها وفضائله التي يحرص على أن يتحلى بها كلما عاد إلى وعيه، ويمكن أن نرى بوساطة الموروث الشعري –لأبي نواس– القيم جملة من الآراء والمواقف التي يقف آزاءها بإعجاب، هذا يقودنا إلى أن صوت الشاعر أبي نواس يعلو بالقيم الفاضلة والمثل الرفيعة، إنما هو صوت الفطرة التي تلد مع الإنسان في كل زمان ومكان، وربما يخفت هذا الصوت إذا تراكبت عليه الضغوط على النفس الإنسانية، أو أطبقت عليها تقاليد صارمة من قبل أصحاب السلطة، ومع ذلك فإن صوت الفطرة ينسرب من خلال رغبة الإنسان في إثبات الذات، بوساطة الفرص المواتية التي تتيح متنفسا ومنطلقا[33]، ومن أجل تحديد القيم الإنسانية البارزة في خمريات أبي نواس سوف نسلط الضوء على القيم الأكثر ورودا في ديوانه (الخمريات) ومنها:

قيمة الدين

إن الدين قيمة سامية تستنبط الإنسانية منه قيمها، فمصدر الدين الإله القصد منه إطاعة الله سبحانه وتعالى، إن الدين وعي وموقف وسلوك والتزام وهذه الأمور تناولها أبو نواس في

خمرياته، وهي مبثوثة بإيحاءات مختلفة في قصائده، فمن غير المعقول أن أبا نواس يأتي بقصائد كاملة يتحدث فيها عن عقيدته الدينية في ديوانه – الخمريات– ، أو أن يصـــور لنا حياته بأنها مليئة بشـــعور الدين القوي، وإنما جاء تعبيره عن الدين بأبيات متفرقة ضـــمن القصـــائد أو المقطوعات في ديونه.

ولعل هذه الأبيات خير دليل في تناولها المعاني الروحية والاعتقاد بوجود إله واحد إذ يقول:

فقلنا أنسقاها على وجه أهيف له تيه معشوق وشخرة شاطر
فما زال هذا دأبنا وغذاءنا ثلاثين يوما مع ليال غوابر
ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر(34)

إن الشاعر في هذا النص يصور حالهم وهم غارقون في جميع أنواع الملذات من الشرب والتمتع باللذة، وهو يعترف بأن ما يقوم به بأنه معصية، لكنه يعتقد أن ارتكاب المعاصي لا يخرج من الملة، ما دام على التوحيد وعدم الإشـــراك بالله تعالى، وهذا يدل على ثقافته الدينية بأن الله يغفر الذنوب جميعا إلا أن يشرك به.

وتزداد هذه الفكرة وضوحا عندما يقول[35] :

فإذا نزعت عن الغواية، فليكن لله ذاك النزع لا للناس

يشـترط أبو نواس مخاطبه أنه إذا فكر في يوم من الإيام ترك الملذات والشـرب فعليه أن يقلع عن ذاك إرضـاء لله سبحانه وتعالى لا من أجل الناس ومرآتهم، وقد أكد هذه الغاية بوساطة اســـتعمالاته اللغوية، إذ قدم الخبر شـــبه الجملة الجار والمجرور (لله) على المبتدأ (ذاك) وهذا التقديم يحمل في طياته إلزام المخاطب والتأكيد عليه بأن تركه يكون خالصـا لله تعالى دون غيره، وهذا الحصـر جاء من خلال (لا النافية العاطفة) من أجل إثبات ترك المعاصـي طاعة لله ونفيها عمن سواه.

لم يرذل أبو نواس الدين وإن لم يعمل بفرائضــه وشـعائره وعندما خارت قواه وشـعر بدنو المنية تولته عواطف دينية عميقة، ولا نزعم أنه كف عن الملذات، بل تعتريه لحظات صـــحو من حين إلى حين، يسـتنبط من خلالها حلاوة الدين وثقته المفرطة بعفو الله الواسـع[36]، هذا الاعتقاد أسهم في إيجاد مقطوعة في ديوانه الخمريات عنوانها (الغفران) يقول فيه[37] :

اترك التقصير في الشر ب، وخذها بنشاط
من كميت كسنى البر ق، أضاءت في البواطي
لِمْ – وعفو الله مبذو ل غدا عند الصراط
خلق الغفران إلا لامرئ في الناس خاطي

إن أبا نواس قسم هذه المقطوعة على قسمين: فالبيتين الأول والثاني يحث جلساءه على شرب الخمر بنشاط وأن يأخذوا من اللذة نصيبا، أما البيتين الثالث والرابع فيثبت فيهما إيمانه بالله وباليوم الآخر ولقائه بربه عند الصراط فهذا من أركان العقيدة السليمة، وفي البيت الرابع يكشف أن الغفران خلق للخطائين، نجد أن الشاعر لديه صدق شعوري تجاه الدين تنبعث أصداؤه من الأعماق، سيما وأن أبا نواس وجد نفسه طريدا مشيعا بتهمة (شرب الخمر) لا تغتفر، فالبيتان الأخيران يعكسان عظم الرب سبحانه وتعالى، ومدى رجاء الشاعر بعفوه والتجاوز عنه يوم القيامة.

ويعمق فكرة العفو والمغفرة من الله سبحانه وتعالى في قوله في موضع آخر[38]:

فمتعت نفسي، والندامى بشربها، فهذا شقاء مر بي، ونعيم
لعمري لئن لم يغفر الله ذنبها، فإن عذابي في الحساب أليم

يعترف الشاعر في مقدمة هذا النص بإسرافه في شرب الخمرة، وهذا الشرب ترك في نفس الشاعر تناقضا نفسيا يقوم على ثنائية اللذة والألم، فاللذة تمثلت في تمتعه بطيب طعم الخمرة ونشوتها، وتمثل ألمه وشقاؤه في معصيته لله سبحانه وتعالى بشربه للخمرة، وما يتولد من هذا الشقاء في المستقبل، الذي يتمثل بيوم القيامة، فهو يقسم بأن الله إذا لم يعفو عنه ويغفر له، فإن الله سيجعل حسابه عظيما، لا سيما وأن الإدمان على شرب الخمر من السبع الموبقات التي لا يغفر الله لمرتكبها إذا مات وهو مرتكب لها، فالشاعر وهو غارق بملذاته يعرض لنا موقفه من، فهو يرى أن الدين مصدر ثري من مصادر الحركة الإيجابية الباعثة إلى الأمل والتفاؤل بعفو الله تعالى ومغفرته لعباده الضعفاء الذين وقعوا في مصيدة المعاصي والذنوب.

نلاحظ من خلال نصوص قيمة الدين أن أبا نواس يتمتع بثقافة دينية، وهو يوظف في شعره بعض ألفاظ القرآن الكريم في رسم صوره الشعرية لتعطي القيم التي يدعو إليها قوة وتكسبها جمالا وتأثيرا وإقناعا.

قيمة الكرم

إن الكرم من القيم الإنسانية التي كانت تشغل الشعراء قديما، لما اتسم به العرب من من خلق اجتماعي كريم، والحق أن الشعر يمثل لنا أن العرب كانوا أجوادا كراما مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها، ولم تكن عندهم خصلة تفوق خصلة الكرم، وقد بعثتها فيهم حياتهم الصحراوية أو الحضرية، فكان الغني يفضل على الفقير وكثيرا ما كان يقدم لمجتمعه من مساعدات في سنين القحط، يقدمها لهم وهو قرير العين سواء لضيفانه أو أقاربه وجيرانه[39] فالكرم قيمة إنسانية لا يمكن إطلاقها إلا من شهد الناس له بذلك.

ومن النصوص التي وردت عند أبي نواس وهو يحث ندماءه على الشرب يضمن كلامه التزامهم بالكرم وإن كان في معاقرتهم للخمرة يقول[40]:

فسل همك بالندمان في دعة وبالعقار، فهذا أهنأ الأرب
وجانب الشح إن الشح داعية إلى البليات والأحزان والكرب

إن الشـاعر وهو في غمرات سـكره تنفجر كوامن نفسـه صـرخة فطرية تشـخص الداء، وتنكر على المخاطب أن يكون تبعا لما يفرض عليه، وربما لم يكن بوسـعه أن يرفض عمليا، أو أن يقف من مسـتلزمات مجتمعه موقف المعارض، فهو يحاول –أبو نواس– تشـخيص ملامح الرفض في قوله: وجانب الشـح، إظهارا للقيم الإنسـانية التي كانت تعتمل في أعماقه، بوسـاطة نظراته في الواقع الذي يعج بمظاهر البخل، ونصه هذا يصدح بالرفض الواضح للبخل، وإشارات الرفض الضـمنية تجيء خاصـة في ثنايا الشـعر الاجتماعي غالبا في صـورة فخر أو مباهاة، حرصا من الشاعر أن يبرز ملتزما بالقيم التزاما يحمله على الفخر، ويقارن نفسه بأولئك الذين لا يكلفون أنفسـهم عناء الالتزام[41]، فالشـاعر يشـير إشـارة ضـمنية أنه كريم وإن الكرم قيمة إنسـانية طيبة من يتسـم بها يحظى بمكانة رفيعة في مجتمعه ، ويقول صـراحة بذم البخل والبخلاء، لأن البخل قيمة إنسـانية سـلبية، وهي عادة مرذولة تمنح صـاحبها قيمة هابطة في المجتمع، ويجعل صـاحبه مصـدرا للتندر بين الناس، وقد أظهر أبو نواس هذه القيمة– البخل– في صـورة حية تعكس المأسـاة إذ تسـتوعب النفس أصـداؤها الأليمة، فهي مجلبة للضـنك والأحزان ، فالشـاعر يجعل قيمة الكرم من القيم التي يتباهى بها أمام الناس، وهي قيم تسـتوجب المدح والثناء، ويسـتهجن ويرفض قيمة البخل فهي لا تعد من القيم التي يتباهى فيها في المحافل، وإنما هي خصلة تستوجب اللوم والتقريع.

ويعضـد أبو نواس قيمة الكرم ويجعلها قيمة جوهرية يجب على المرء أن ينماز بها، وأن يكرم دون مقابل، يقول[42]:

دع من يقارض أقداحا بأقداح ليس المروءة سقي الراح بالراح
عهدي بقوم، إذا ما حل زائرهم تبادروا بقرى الضيفان سمّاح
عاشوا بأسيافهم، فتكا بلا منن من الأرذال أو ماتوا بأرماح

إن هذه المقطوعة تحمل في طياتها لبّ القضـية، ويقدمها بألم طافح، فهو ينكر ويترفع عن كل من يكرم مقابل شـيء، ونحس بهذه النبرة الحادة في الترفع عن كل ما يثلم من كرامة الإنسان، فالشاعر لا يريد الفرية قدر ما يظهر لنا نفسا تنزع إلى مكارم الأخلاق، وتأبى كل قيمة لا تمت للإنسانية بصلة، فهو يرفض أن يكون الكرم فقط في تبادل الأقداح وهم في الحانات، بل يريدهم كرماء كما أسـلافهم يضـحون بكل غال ونفيس في سـبيل من يسـتضـيفهم، وهذا ما أكده البيت الثاني في المقطوعة، وتتجلى القيمة الإنسـانية عندما يتصـل الكرم بالمروءة، إذ نجد أبا نواس يتغنى بأمجاد الأسـلاف الذين يتسـمون بمجموعة من الفضـائل، فهو يتحدث عن كرمهم

الفياض وأنفتهم وعزتهم، وتحملهم المشـــاق من أجل الحفاظ على ضـــيفانهم وزوارهم، فأبو نواس يريد من مخاطبه أن يرعى القيم الإنســـانية، وأن يتحلوا بالمكرمات والفضـــائل التي ترفع المتحلي بها، وتبوئه مكانة رفيعة بين الناس.

ومن النظرات الاجتماعية السـديدة نظرة أبي نواس إلى قضـية الغنى والكرم حين يعرض نظرته إلى الكرم ودوره في حياة الإنسان حين يقول[43] :

فإن دنس المال عرض ذي شرف فإن عرضي يصان بالمال

تظهر أمامنا رؤية أخلاقية تترفع عن الأمور المادية، بل تضـــع ذلك في موضـــع حيوي من حياة الإنسان تصان به الأعراض والأحساب، فالكرم بالمال وسيلة لأشرف غاية.

وتتمثل القيمة الإيجابية للكرم والدعوة إلى اســـتثمارها في ميادين الخير وكســـب المحامد في قوله [44]:

سأبغي الغنى، إما نديم خليفة يقيم سواء أو مخيف سبيل
لنخمس مال الله من كل فاجر وذي بطنة للطّيبات أكول
ألمْ ترَ أن المال عون على التقى وليس جواد معدم كبخيل

تتجلى القيمة الإنسانية في خطاب أبي نواس في حصوله على المال، وذلك بأن يحصل على المال من أناس محددين، فهو يريد المال من ندماء الخليفة وقطاع الطرق ومن أخذ أموال الفقراء بالباطل، فهو يحرص بالحصول على الغنى من كل شخص جمع مالا من غير وجه حق، ثم تتمثل قيمة الكرم في البيت الثالث، فهو ينفق المال كله ابتغاء لمرضـــاة الله، ومن ثم يكســـب ومن وراء ذلك السيرة الحسنة والذكر الطيب.

قيمة الفتوة

إن الفتوة ذات مقام رفيع في حياة العرب وأهمية بالغة؛ لأنها القوة التي تحمي وتصـــون الحرمات وتذوت عن الناس العدوان، وقد ارتبط مفهوم الفتوة بكل القيم الإنســـانية المحببة إلى النفس، وقد استوعب الشعر العباسي – ولا سيما شعر أبي نواس– هذه القيمة من حياة الناس[45].

ومن صور الفتوة التي بثها لنا أبو نواس في خمرياته قوله[46]:

حساها كل أروع، شيضمي كريم الجد، محمود مؤات
تحية بينه، تفديك روحي وآخر قولهم" أفديك ! هات"

يتحدث أبو نواس عن جلســـائه، فيصـــورهم فتيانا في كامل قوتهم، وهم أصـــحاب ذكر محمود لدى المجتمع، وهو يتباهى بهم، لأن الواحد منهم يقدم روحه أمامه من أجل الحفاظ عليه.

وتتمثل قيمة الفتوة بلفظة (شيضمي) والتي تحمل في طياتها مدلول الفتوة، فهي لا تعني في مدلولها مجرد الشباب بل كانت رمزا قصيرا إلى مجموع حاشد من القيم التي كان العرب يقدرونها فالشيضمي ليس الشباب كائنا من كان بل هو الفتى الذي يجمع بين قوة الشباب وشجاعة القلب والنجدة والمروءة والسخاء والأريحية، ثم الذي يضم كل هذه القيم الإنسانية، لا بد له من شيء آخر ألا وهو شرف النسب[47]، وهو بهذا النص يفخر بنفسه لأن ندماءه ذو مكانة وقوة، نافيا عن نفسه الضعف والخوف وهو يتوسط أصحابه.

ويمضي أبو نواس في خمرياته راسما لنا الفتوة بقوله[48]:

نازعتها فتية، غرا، غطارفة ليسوا إذ امتحنوا يوما بأنكاس
لا يبطرون، ولا يخزون ناديهم، كأنهم جثث من غير أنفاس

يرسم لنا أبو نواس صورة يبين فيها وجوه أصحابه بأنها مشرقة بيضاء، ثم يستمر في إبراز قيمة الفتوة بأنهم ليسوا من الذين يقصرون تجاه من يستغيث بهم، فهم فتيان لا يدخرون وسعا في كل ما يبذلونه من جهد في سبيل إعانة من يستعين بهم على خصومهم. ثم يشخص لنا الشاعر قيمة إنسانية أخلاقية وهي الوقار، وهي قيمة معنوية تشي بأن من يمتلك هذه القيمة يكون سلوكه معتدلا فمن خلال قيمة الفتوة يتسامى من يتحلى بها عن الدنايا والنقائص، وتملأ نفسه بالإباء والعزة والكرامة، فالشاعر يخلع عليهم قيم مثالية لا يشك في نسبهم وأخلاقهم، وما تعكسه هذه القيمة من الحيوية والنظارة التي يتمتعون بها.

قيمة النصح

إن لفظة النصيحة تتضمن كل ما فيه خير للمنصوح فهي" دعاء إلى ما فيه الصلاح والنهي عما فيه الفساد"[49] ففي مضمار التوازن الاجتماعي لابد للناصح أن يحكم عقله ويعمق إدراكه وفقا لمتطلبات الحياة، وتحكيم العقل عنصر بارز في تحديد السلوك والممارسات ضمن المجتمع.

وأبو نواس ينصح جلساءه في اختيار الأصدقاء يقول[50]:

صل من صفت لك في الدنيا مودته ولا تصل بإخاء حبل جذاذ
يعوذ بالله أن أصبحت ذا عدم، وليس منك إذا تثري بمعتاذ

يندب أبو نواس أصحابه وينصحهم في حسن اختيار الرفاق وهذا النصح جاء بوساطة فعل الأمر للإلزام والتأكيد، قد يبدو الشاعر أنه متناقض في سلوكه ومبادئه، إذ كيف يوفق بين الاعتبارات الإنسانية الأخلاقية وتفكيره من جانب، وبين العالم المادي بكل محتوياته الفعلية من جانب آخر، لكن الالتباس سرعان ما يتلاشى بعد التعمق في معرفة شخصية أبي نواس، فهو لم ينعم بالرضا عن نفسه في وسطه الاجتماعي، فكان لا بد له من أن يسهم في إرشاد غيره في

اتخاذ الصديق الأمثل في حياته العملية[51]، يمثل هذا النص الشعري تجربة أبي نواس في الحياة، وهو نص عملي فيه قيمة إنسانية غايتها الأخذ بيد أصحابه الذين فاتتهم الاستفادة من تجارب الحياة، ومساعدتهم على معاشرة من هو أجدر وأنفع بالمعاشرة.

يحرص أبو نواس أن تسود الجماعة التي ينتمي إليها خصال وقيم حميدة تجلب المحمدة وتدفع المذمة، فهو يتحدث بروح الجماعة التي يجالسها يقول ناصحا ومعززا للفكرة السابقة[52]:

ولا تسق المدام فتى لئيما ... فلست أحلُّ هذي للئيم
لأن الكرم من كرم وجود، ... وماء الكرم للرجل الكريم
ولا تجعل نديمك في شراب، ... سخيف العقل، أو دنس الأديم
ونادم إن شربت أخا معال، ... فإن الشرب يجمل بالقروم
وإن المرء يصحب كل جيل، ... وينسب في المدام إلى النديم

يشكل الشاعر الشخصية الرئيسة والطرف المحرك للنصح في هذه الأبيات الشعرية، وحوار الشاعر موجه إلى شخصيتين– قد تكونان الساقي والنديم– وهذا الحوار تضمن تناقضا فهو لاه غارق بشرب الخمر من جهة، ومن جهة ثانية يهتز للقيم الإنسانية والأخلاقية، فهو محب لصحبه ناصح لهم، بعدم مجالسة اللئيم وترك معاشرته هو ومن كان سيء الخلق ذميم السجايا، فهذه الظواهر الاجتماعية تترك آثارا سلبية على المجتمع، أما من كان يتصف بالسمات الحسنة وبالمكانة الرفيعة فجالسه ونادمه، لأن مجالسة مثل هذه الشخصيات ترفع شأن من يجالسه.

وبالتالي فإن هذه المقطوعة تمثل تجربه واعية للشاعر، وهي قائمة على أساس إيجابي، إذ ينصح مخاطبه بأن يراعي أخلاق من يصاحب، فالشاعر عبر هذا النص كشف لنا العيوب والسلبيات التي يمارسها البعض في المجتمع ومحذرا المخاطب منها، وفي الوقت ذاته يشيد بالقيم الرفيعة التي تولد آثارا إيجابية ترفع من ينماز بها مكانة في المجتمع.

قيمة العفو

إن العفو قيمة إنسانية شفيفة تمنح المعفو عنه اغتباطا ومسرة، وتحمل في ثناياها دلالات نفسية إيجابية، تجعل من صفح عنه يتصالح مع نفسه ومع الآخرين، يظهر من خلالها عزمه على ترك كل قيمة سلبية تحط من قيمته أو تهدد مكانته.

يقول أبو نواس عن قيمة العفو في الدين[53]:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

لا تحظر العفو إن كنت أمرأ حرجا فإن حظركه في الدين إزراء

يوجه أبو نواس كلامه نحو رجال النظام بأســـلوب تقريري، ينكر عليهم ادعاءهم العلم بأمور الدين، ويحثهم على أهم قيمة إنسانية وهي تهذيب العقل وتوظيفه لمصلحة الدين، ثم يؤكد على قيمة جوهرية وهي قيمة العفو والتسامح، فهي قيمة مرتبطة بالرب سبحانه وتعالى –لاسيما من كان على شاكلة أبي نواس في هذه القصيدة– فهو يدعوهم إلى الروية والتعقل في زعمهم أن المغفرة الإلهية لن تكون لأصــحاب المجون، بل عليهم أن يجسـدوا هذه القيمة –العفو– بالاكبار فهي قيمة خلقية عالية، وإن منع العفو عن الناس سيترك آثارا سلبية على الدين وعلى المجتمع، فأبو نواس يحرص على وحدة الكيان الاجتماعي والحفاظ عليه من التصـدع والانهيار ، لا سيما شيوع جملة من الأفكار والجماعات المرتبطة بعدد من الفرق التي كانت تترصد للدين الإسلامي، فالشاعر يرفض كل أسلوب يسيء إلى مجتمعه.

وقد اتخذ أبو نواس من مجالس الســكر مدخلا في بيان قيمة العفو، فهو قيمة تبعث قوة العلاقة بين المتحابين ومحاولة إثبات صدق المحبة، وهذا يستلزم قوة التواصل بينهم، والبعد عن الجفاء والقطيعة، يقول أبو نواس في هذا المضمار[54]:

والقوم إخوان صدق بينهم نسب من المودة ما يرقى له نسب
تراضعوا دِرّةِ الصهباء بينهم، وأوجبوا لنديم الكأس ما يجب
لا يحفظون على السكران زلته، ولا يريبك من أخلاقهم ريب

لقد تحدث الشـاعر عن أبناء قومه وكأنه يتحدث عن نفســه، بما يمتازون به من حسـن المعاشـرة والثقة المتبادلة في الود والتسـامح في أثناء سكرهم، وقد عبر عن هذه القيمة في البيت الثالث، فهم متســامحون لا يحاســبون بعضــهم على زلاتهم، فالمجالس التي تســودها هذه القيمة الإنسانية سيملؤها الود، فضـلا عن ديمومة التواصل بين الجلساء، إن بث هذه القيمة في سياق الحديث عن القوم وسكرهم، تمثل الفصل بين عالم السكر والنشوة وعالم الصحو، إن هذا الفصل يمثل تعارضا صارخا بين قيم الخمرة التي يمجدها الشاعر وبين القيم الإنسانية التي يدعو إليها.

بعد النظر في النصوص التي تناولناها نجد أن الشاعر يؤكد لمخاطبه أهمية قيمة العفو ودورها في زرع المحبة والود والألفة والابتعاد عن اللوم الذي يؤدي إلى زعزعة أواصر المودة والوئام بين أفراد المجتمع.

قيمة الحياء

الحياء قيمة إنسانية شديدة الأهمية في بناء المجتمع، فمتى كان المرء حييا انعكس ذلك إيجابا على المجتمع، فتختفي المجادلات والصدامات، وساد الحب والاحترام بين أبناء المجتمع وبالتالي يعم السلام المجتمعي ويقوي الأواصر ويحدد السلوكيات الإيجابية.

وأبو نواس يبدو أنه يختار من الأصحاب من يتصف بهذه القيمة يقول[55]:

كرخية كالروح دب بشربها حلم، يداخله حيا ووقار
في فتية فطموا الحيا، فلباسهم حلم وليس لجهلهم آثار

يظهر في هذين البيتين أن الشاعر كان حريصا على إثبات قيمة الحياء لهؤلاء الندماء بوساطة لفظة (الحيا) التي تكررت مرتين، وما تعكسه هذه اللفظة من الفضائل والقيم الاجتماعية، وما تتركه من أثر في النفوس، مما يخلق حالة من الوئام والمحبة والاحترام، وهو لا يشك بحلمهم وتعقلهم، وفي استعماله للفعل (فطموا) دلالة أنهم اتصفوا بهذه القيمة منذ نعومة أظافرهم، وفي تكرار لفظة (الحيا) ملمح أسلوبي إيجابي وهو أن هؤلاء الأصحاب مثلوا لديه المجتمع المثالي الذي يود الانتساب إليه.

يمضي أبو نواس في تجسيد قيمة الحياء من خلال توازنه الأخلاقي في معاقرة الخمرة هذا التوازن القائم على الحياء وما فيه من حفظ لكرامته التي تدعوه إليها فطرته الإنسانية التي جعلته يفصح عن هذه القيمة التي لا مساومة عليها حتى وإن كان مستمتعا في ملذاته. يقول فيها[56]:

إني وإن كنت ماجنا خرقا، لا يخطر النسك لي على بال
لذو حياء وذو محافظة، مبتاع حمد الرجال بالغالي
فإن دنس المال عرض ذي شرف فإن عرضي يصان بالمال

يعرض الشاعر في هذا النص صورة مثلى لقيمة عليا من خلال التركيب الإضافي (لذو حياء) هذا التركيب يطرح القيمة الإنسانية التي يتحلى بها كثير ممن خالطهم في الحياة، فالحياء يضبط سلوكيات الفرد، ويمكنه من الاستقرار النفسي، وأبو نواس بهذا الخطاب يسعى إلى مواءمة سلوك الفرد مع عملية أخلاقية ذلك أن الحياء يكسب المرء الوقار فلا يفعل ما يخل بالمروءة من التعدي على الآخرين والطعن في أعراضهم، والحياء يدفع المرء إلى التحلي بكل جميل والابتعاد عن كل قبيح، فغاية الشاعر الضمنية توجيه المجتمع على ما ينبغي أن يكون عليه في سلوكه بأخلاق فاضلة تستمد من قيمة الحياء.

قيمة الوفاء

يعد الوفاء من المروءة ومن كمال الأخلاق، وهو قيمة إنســـانية راقية، تنم عن الخلق الشـفيف والمشـاعر المتيقظة، وهي امتحان للإنسـان يظهر فيها مبلغ حزمه ومقدار وعيه وتمكنه من نفسه[57]، والناس فيما يبتلون من وعود وعهود لا بد لهم من قوة تساندهم وتساعدهم، وتتجلى هذه القوة في قيمة الوفاء، ويتمثل الوفاء في ســـلوكيات اجتماعية عدة، منها حفظ الجوار وأداء الأمانة، وحفظ العهود والوفاء بالوعود لبقاء قيمة إنسـانية مثلى وهي الثقة في التعامل بين الناس، فبدون الثقة يتفكك المجتمع ولا تقوم أوصره ولا إنسانيته. يقول أبو نواس عن الوفاء[58]:

تصبحت على وعد، وبت على وعد لمن زارني بعد التجنب والصدّ
فجاء بعيد الظهر للغد موفيا وبتّ على مهد، وبات على مهد

إن الوفاء واجب ديني وأخلاقي، وهو سلوك عملي يتوافق مع تعاليمنا الإسـلامية، فالوفاء قيمة جوهرية إنسـانية عرفتها المجتمعات قبل الإسـلام وتاريخنا العربي حافل بتجارب كثيرة تحمل في ثناياها هذه القيمة، ولما جاء الاســـلام أقر بها، وأبو نواس كان على موعد مع حبيب وهذا الحبيب كان يخالف الوعد ويماطل، لكنه في النهاية شـعر بقيمة الوفاء والتقى بالشـاعر، يكشـف البيتان الوفاء بالوعد وعدم الاستهانة به أمام أي ظرف.

الخاتمة

من خلال هذا البحث نجد أن أبا نواس يمثل نهضــة شــعر الخمرة فقد أكثر من وصــف الخمرة ومجالســها، وضــمن مغامراته الخمرية قيما إنســانية عدة، هذه القيم لم تأت في قصــائد منفردة بل جاءت ضمن قصائده الخمرية، لم يجعل البيت المتضمن للقيمة الإنسانية مستقلا بذاته بل جعله جزءا من القصيدة أو المقطوعة، يتبين أيضا أن الشاعر يبدو من خلال هذه القيم إنسانا ملتزما بهذه القيم يحاول الاحتفاء بها حريصــا على الذود عنها، فبدأ موحدا بعيدا عن الشــرك، صـافي العقيدة، وكان يكبر من الشـباب ويشـد على أيديهم، ثم ظهر كريما متسـامحا، يحث على الحياء والالتزام به، وكان بين يدينا – في أثناء قراءة الديوان– قيم ســلبية آثرنا عدم الكتابة عنها لسببين:

الأول: لضيق المجال البحثي. والثاني: عدم موافقة العنوان لها فالعنوان يحمل القيم الإيجابية فحسب.

الهوامش والمصادر:

(1) سورة البينة الآية (3).
(2) ابن منظور، لسان العرب المحيط، تقديم: عبد الله العلايلي، تصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت): مادة قوم.
(3) القيم الأخلاقية، عادل العوا، الشركة العامة للصحافة والطباعة والنشر، دمشق، 1965م: 44.
(4) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، 1974م: 593.
(5) الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، د. رمضان الصباغ، دار الوفاء، مصر، ط1، 2013م: 36-37.
(6) ينظر: السلوك التنظيمي المعاصر، راوية حسن، الدار الجامعية الاسكندرية، مصر،2002م: 151.
(7) ينظر: القيم الإسلامية والتربية، علي خليل مصطفى، بيروت، دار طيبة، الطبعة الأولى، 1980م: 34.
(8) التغير في ارتقاء القيم لدى مجموعات من الجنسين، بشير معمرية، مجلة العلوم الإنسانية، ع15، 2001: 10.
(9) م.ن: 10.
(10) ينظر: فلسفة القيمة، عبد الفتاح الديدي، مجلة البيان، ع75، 1980: 67.
(11) القيم والعادات الاجتماعية، د. فوزية دياب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ط1، 2003م: 52.
(12) ينظر: الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، محمد حمدي زقزوق، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط1، 2003م: 143.
(13) ينظر: القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر: عبد المجيد مسعود، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، قطر، ط1، 1999م: 54.
(14) مقدمة في علم الأخلاق، محمود حمدي زقزوق، دار القلم، الكويت، ط2، 1980م: 28.
(15) المنطق وفلسفة العلوم، بول موي، ترجمة: د. فؤاد حسن زكريا، دار العروبة للنشر، الصفاة الكويت، طبع دار النفائس، بيروت،1981م: 244.
(16) ينظر: الإحساس بالجمال، جورج سانتانيا، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، مراجعة د. زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت): 49- 50.
(17) المعجم الفلسفي، جورج صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1982م.: 213/2.
(18) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1979م:151.
(19) المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، محمد جميل خياط، جامعة أم القرى، مكة، ط1، 1996م. : 63.
(20) فلسفة التربية الإسلامية، عمر التومي الشيباني، الدار العربية للكتاب، ط1، 1988م: 231.
(21)موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول، مجموعة مؤلفين، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1998م: 83.
(22) المعجم العربي الأساسي، أحمد العايد وآخرون، (تونس، للروس)، 2003م: 424.
(23) دراسة نقدية في مبنى خمريات أبي نواس، يوسف هادي، مجلة إضاءات نقدية، السنة الأولى، ع2، 2011م: 127.
(24) ينظر: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مصطفى الشكعة بيروت، عالم الكتب، د.ت : 2
(25) ينظر: ديوان أبي نؤاس(خمريات أبي نؤاس)، قدم له وشرحه: د, علي نجيب عطوي،دار مكتبة الهلال،بيروت،ط1، 1986: 7.

(26) م.ن: 8

(27) ينظر: أبو نؤاس الحسن بن هانئ، جعفر خريباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م: 34.

(28) ينظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق: عبد الستار فراج، دار المعارف، مصر،ط3، 1976م: 193.

(29) ينظر: ديوان أبي نواس (الغزليات)، قدم له وشرحه: د, علي نجيب عطوي، دار مكتبة الهلال، بيروت، د.ط، 2002م: 5-7.

(30) ينظر: كتاب الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجبل ، لبنان، 1988م: 6/ 239.

(31) ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الفكر، بيروت، د.ت، 7/ 447و448.

(32) ينظر: الأدب العباسي (الشعر)، سامي يوسف أبو زيد،دار المسيرة، عمان، الأردن، ط2، 2019م: 117- 119.

(33) ينظر: القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، د. جليل رشيد، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، ع7، تشرين الأول، 1976م : 480.

(34) ديون أبي نواس (خمريات أبي نواس): 215.

(35) م. ن: 257.

(36) ينظر: الأدب العباسي (الشعر) : 118.

(37) الديوان: 263.

(38) م. ن: 343.

(39) ينظر: القيم الفكرية والجمالية ، د. عبد القادر فيدوح، الأيام للنشر، المنامة، البحرين، ط 1، 1998م: 116.

(40) الديوان: 66.

(41) ينظر: القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، د. جليل رشيد: 487.

(42) الديوان: 120.

(43) م. ن: 312.

(44) م. ن: 292

(45) ينظر: القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي: 493.

(46) الديوان: 83.

(47) ينظر: القيم الفكرية والجمالية: 92.

(48) الديوان: 252.

(49) كشاف اصطلاحات الفنون (التعريفات)، محمد علي التهانوي(ت1158هـ)، تحقيق: لطفي عبد البديع، دار الكتاب العربي- مصر، (د.ت): 241.

(50) الديوان: 157.

(51) ينظر: القيم الفكرية والجمالية: 127.

(52) الديوان: 344- 345.

(53) م. ن : 11.

(54) م.ن: 64.

(55) م.ن : 227.

(56) م. ن: 312.

(57) ينظر: القيم الجمالية والأخلاقية: 201.

(58) الديوان: 151.